كتاب النبراس
ANIBRASSE
2
نونبر 2005

من ذكرياتي مع مالك بن نبي

محاورة فكرية مع
الدكتور عبد السلام الهراس

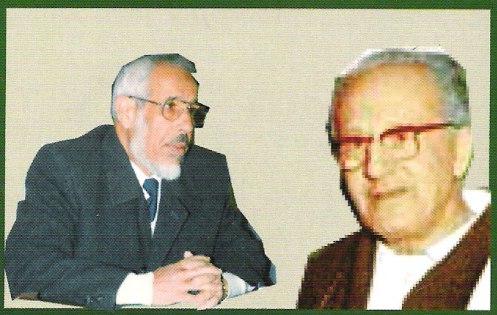

حوار : محمد البنعيادي

تقديم : د. حسن الأمراني

سلسلة تصدر عن جمعية النبراس الثقافية

15، شارع إدريس الأول، وجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

من ذكرياتي مع مالك بن نبي رحمه الله

محاورة فكرية مع

الدكتور عبد السلام الهراس حفظه الله

إعداد: محمد البنعيادى تقديم: د.حسن الأمراني

مقدمة:

د/عبد السلام الهراس من رجالات الفكر الذين قدر لهم

الله أن يعيشوا مع مالك بن نبي في القاهرة وبيروت ودمشق، بل وكان

ممن ساهم في طبع ونشر بعض كتبه التي لاقت قبولا واسعا في العالم

الإسلامي وخاصة (شروط النهضة) الذي يعتبر عصارة فكر ابن نبي.

كان الدكتور الهراس لذلك من أقدر الناس على الحديث عن مالك ابن

نبي وتراثه الفكري، لذلك التقينا به وكان لنا معه هذا الحوار:

ذ/محمد البنعيادي

في ظروف الولادة الفكرية لمالك بن نبي
أسى وتمزق

تعتزم جمعية النبراس الثقافية بوجدة إحياء مائوية مالك بن نبي (1905 – 2005) بتنظيم ندوة دولية خلال نونبر 2005، وقد سبق أن أصدرت كتابها الأول (أسئلة الفكر والمنهج والفعالية في تراث مالك بن نبي من تأليف محمد البنعيادي) تمهيدا لفعاليات هذه الندوة، ويسعد ما أن تستضيفكم في كتابها الثاني في حوار طالما طلب مني كثير من الإخوة أن أجريه معكم لتجربتكم الثرية في مجال الدعوة الاسلامية عموما وفي تجربتكم مع مالك ابن نبي خصوصا .

وقبل أن نتعرف من خلالكم على تفاصيل ولادة أهم أفكار مالك بن نبي بحكم ملازمتكم له في أهم فترات إبداعه الفكري، أود أن تحدثونا عن الظروف الفكرية والسياسية والدعوية التي ظهر فيها هذا المفكر العبقري؟

بسم الله الرحمان الرحيم والصلاة و السلام على خير المرسلين و على آله وأصحابه إلى يوم الدين.

شكر الله لكم هذه المبادرة الطيبة المتفتحة التي تدل على الهم الذي يشغل بال إخواننا في هذه البلدة وفي جمعية النبراس الثقافية بوجدة، هذا الهم في الحقيقة هو هم كل مسلم، ويدخل في قول الرسول ص:"من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم".

مالك بن نبي، هذا رجل أظن أن الله سبحانه و تعالى هيأه استجابة لضرورة الوقت. كنت في المغرب كباقي الطلاب مشتتا، همنا الوحيد هو الاستقلال، ولكن لم نكن نفكر فيما قبل الاستقلال وما بعد الاستقلال. حقيقة إننا في المغرب كانت لنا فكرة مفادها: يجب أن نتفق مع الفرنسيين أن يظلوا عندنا وأن يعطونا الاستقلال الداخلي أو الذاتي لمدة عشر سنوات ثم الاستقلال التام، في خلال العشر سنوات نشترط عليهم شروطا من جملتها تهييء الأطر.

هذه الفكرة النيرة التي كانت في صالح المغرب. ولكن الذي غلب على جمهور حزب الاستقلال هو أن لا مفارضة إلا بعد الاستقلال، ثم هجمت علينا هجمة ضياع فلسطين في 1949م، وكنا نظن أن العرب بدولهم المتعددة ستسحق الطغمة اليهودية كما كانوا يقولون، فإذا بضياع فلسطين يقع علينا كالصاعقة، وكنا دائما نفر إلى التسويفات والتبريرات والخيالات و الأحلام ولا نواجه الحقائق على الأرض.

فلما ذهبت إلى المشرق في سنة 1952 أراد الله أن أكون في لبنان، أنا طلبت أن أذهب إلى مصر وإذا بالسفينة رست في بيروت، فاتجهت إلى دمشق التي أقمت فيها شهرين متتابعين كانت الأفكار الرائجة هي القومية العربية و الدولة الإسلامية بزعامة الإخوان المسلمين وكانت التيارات البعثية والشيوعية والقومية السورية والتحريرية ضعيفة...، كان البعث العربي الذي أضيف إليه بعد ذلك الاشتراكي يقوده نصراني من أصل يوناني من قبرص وليس عربيا هو ميشيل عفلق شيخ صدام حسين والأسد وزعمائهما...

وكان قد ظهر حزب التحرير في 1950، وقد التقيت بمؤسسه وبالقيادة الأولى له في بيروت و هو الآن رفيق برغوث، كما كنت أتصل بالقوميين العرب بالجامعة الأمريكية، كانت عندهم مجلة اسمها العروة الوثقى، و نشرةً اسمها: الثأر، كانت القومية العربية قد ملأت الساحة، واستولت على

الأفكار ولا سيما بعد انقلاب العسكر بمصر الذي كانت وراءه أمريكا وكان من شعاراتها: الثورة على الحكام، نريد القضاء على الحكام، والأنظمة كلها، ما عدا المغرب بسبب تضحية محمد الخامس الذي أصبح قبلة العالم العربي لأن نظامه كان نظاما مجاهدا، والذي عزز عظمة المغرب في نظر هؤلاء جهاد محمد بن عبد الكريم الخطابي، وفراره ونزوله في بور سعيد سنة **1947**، و الضجة الكبيرة التي حدثت، ثم تضحية محمد الخامس، هذان الأمران كان لهما أعظم الأثر في تقدير المشارقة للمغرب، وعدم المساس بنظامه الملكي بل كانوا يساندونه.

عشت في بيروت سنتين ثم كنت أصطاف فيه خلال ثلاث سنوات ما تركت فيه مكانا ولا زاوية ولا زقاقا و لا صاحب فكرة و لا صاحب دعوة أو نشاط إلا زرته، وحضرت عنده، من بين ذلك الندوة الثقافية لأحد النصارى من المثقفين الكبار الذي كان يأتي بشخصيات متعددة لإلقاء المحاضرات الأدبية والسياسية والاجتماعية كما كنت أحضر المحاضرة الأسبوعية في الأدب الجاهلي والعباسي للأستاذ أفرام البستاني (شقيق الفريد البستاني الذي عاش بتطوان مترجما مع الإقامة العامة) وذلك بالجامعة اليسوعية، وهناك التقيت

بكبار الرهبان الأوربيين ووجدت مستشرقا إسبانيا [1] صديقا كنت عرفته بشفشاون، ثم زرت المفكر السوري اللبناني قسطنطين زريق: مدير الجامعة الأمريكية..... زرته في جامعته، فاكتشفت هناك بداية الدعوة القاديانية والبهائية، واتصلت بتركي [2] تجاوز التسعين سنة ببيروت و هو شيخ البهائية هناك، وكنا نلتقي بإخواننا العرب، كانوا بسطاء طيبين، نيتهم طيبة ولكنهم مغفلون: فكرغيرعميق، عاطفيون مندفعون...

أما حزب البعث فكان ماكرا يعتمد على الانقلابات أما الشيوعيون فكان للنصارى الأرثوذكس علاقة به لأن لهم علاقة دينية قوية بروسيا.

وقعت كوارث للإخوان المسلمين على يد العسكر المصري، ولست في حاجة إلى بسط أفكارهم فقد كانت لهم أفكار واضحة إسلامية لكنهم كانوا يقولون بالانتخابات لأن تقرير الشعب وإرادته ومصيره و تأسيس دولة وتحرير فلسطين يمكن إنجاز ذلك بالديمقراطية، و لكن الأحداث كانت أكبر منهم .

أما حزب التحرير فإنه منظم الفكر، ومشروعه شامل من العقيدة إلى الدولة، ولكنه كان يثير بعض التخوفات و الشكوك لأنه كان يقول: الجهاد لا

---

[1] عرفته بشفشاون يتعلم العربية ثم لقيته بيروت، أنسيت اسمه و هو ابن أخت المستشرق الغرناطي الشهير لويس دي لوسينا .

[2] لا أذكر اسمه ولكنه كان على فراش الموت وصار يدعوني بأسلوب جاملي وتفسيرات للقرآن محرفة للدخول في دينه الذي صنعه الإنجليز كما صنعوا القاديانية

يجوز الآن حتى تقوم الدولة الإسلامية، كما أنه لا يهتم بالجانب التربوي الروحي مكتفيا بالتربية الجدلية وفن المناظرات وكانوا يهاجمون الإخوان ويقولون إن الإخوان المسلمين ظلوا عشرين سنة **1928-1948** ولم يؤسسوا دولة، فإذن منهجهم فاسد لذا كان لا بد من حزب التحرير الذي تأسس سنة **1950**، يعني أنه في سنة **1970** ستقوم الدولة على أيديهم، فالإخوان حقيقة كانت لهم مشروعات مهمة جدا: مشروع فقه السنة لسيد سابق، و مشروع الفقه الجنائي لعبد القادر عودة، وقاموا بمشاريع تجارية ناجحة، وكان فيهم فصائل وشخصيات لامعة مثل: لجنة الشباب المسلم و كان فيها مفكرون كبار من جملتهم، المرحوم عبد الحليم أبو شقة صاحب مشروع تحرير المرأة في عصر الرسالة، و الدكتور سالم رشاد سالم، صاحب ابن تيمية ومنهم الدكتور أحمد كمال أبو المجد القاضي الدولي، و سيد قطب رحمه الله صاحب معالم في الطريق، ومحمد قطب، ونحن هنا بالمغرب قرأنا لهم: العدالة الاجتماعية في الإسلام (أي المجتمع الإسلامي أساسه العدل) ونقد القصور المادي للإنسان عن طريق كتاب: الإنسان بين المادية والإسلام وشبهات حول الإسلام لمحمد قطب، وأما الغزالي فلم نكن نقتنع به كثيرا رغم أنه كان داعية كبيرا، كان يرد على ماركس ورد على مفكرين عرب مثل الرد على خالد محمد خالد

الذي شغل الفكر العربي في عصره بكتابه: من هنا نبدأ، ومواطنون لا رعايا، ولا تحرثوا البحر.

فالساحة العربية في بيروت ودمشق كانت مليئة حماسا ومظاهرات، وكان الإخوان في دمشق وعلى رأسهم الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله الذي كان خطيبا مفوها ومعه من الخطباء الكبار الشاب عصام العطار حديث التخرج الذي صليت وراءه بها بمسجد الجامعة، والحقيقة أنني كنت سريع التأثر بالخطب، ولكن لا أقتنع، ووجدت بعض سوء التفاهم بين الإخوان وجملة من العلماء، فالعلماء كانوا يطلبون منهم التزام الحكمة إلا أنهم كانوا يقدرون الدكتور محمد أديب الصالح و بعض أفراد قلائل ممن كانت لهم صلات بالعلماء، هذا هو الواقع: أسى وتمزقا.

وذات مرة زرت فلسطينيين ووجدت بعضهم مغاربة، أي فلسطينيين أصلهم مغاربة، ووجدت هؤلاء الفلسطينيين يائسين، وكان بعض الفلسطينيين معنا مثل جورج حبش يحاولون أن يمزجوا العربي بالعربي ويوحدون على أساس العروبة مع تنحية اسم الله والدين والإسلام لما فيه من خدش لمشاعر النصارى، فقلت لأحدهم: يا أخي نحن لا نبغي مشاعر النصارى بل رضى الله، فقال: لا!! لدرجة أنه عندما وقع هجوم الفدائي علال بن عبد الله الزرواي على ابن عرفة في المغرب، كتبت قصيدة رثائه، نشرتها في مجلة العروة الوثقى أقول فيها:

اسألوا التاريخ عن حر أبي كره الذل بأرض الـــمغرب

عشق الموت فأغـــراه به فسما بالحب أعلى الرتب

وحتى قلت في أحد الأشطار: ..... سر لخلد الله واهنا واطرب

فقال لي أحد المغفلين من هؤلاء: لو غيرت لفظة اسم الله ، فقلت له: كيف نغيرها، فإذا لم يكن مع الله فهو لن يطرب بل سيحترق، ثم قلت له: أنا لست عربيا، فقال: وما أنت ؟؟ قلت: بربري أتكلم العربية لحبنا سيدنا محمد (ص) والقرآن المنزل بالعربية ونحن البربر إذا أزلت عنا الاسلام سنطرد العرب كلهم من المغرب. نحن البربر مسلمون نحب العرب والمسلمين وإذا أزلتم اسم الله فلن نتعامل معكم.

فانظر إلى هذه العقلية إلى أي درجة وصلت بالمسلمين.

إن الإخوان حقيقة قدموا مناهج عمل، ولكن لم تكن هناك ديمقراطية ليشرعوا في تطبيق المشروع، وقد قال فيهم أحد الامريكيين: إن حسن البنا إما أنه سيقضي على الاستعمار نهائيا وإما أنه سيغتال، وقد انتهى الأمر باغتياله، وقال:" هكذا الشرق ما أن يقع على كنز حتى يفقده من يده و يضيعه ".

المقصود أننا في هذه الرحلة التقينا بشخصيات وتحاورنا مع طلاب من الجامعة الأمريكية، ومن الجامعة اللبنانية والسورية، فالساحة كان يطغى عليها

مجموعة الانقلابات في سوريا وفي مصر، وقد تبين أن العساكر ليس لهم فكر، لكن التيار الإسلامي كانت له منظومة فكرية متكاملة.

ولما ذهبنا إلى مصر، وجدنا نفس الأدبيات، كلام في كلام، الثورة الاشتراكية، القضاء على إسرائيل ، الوحدة العربية، ولكن لما خالطنا البشر وجدنا الانقلابيين في واد والشعب المصري في واد آخر.

قال عنه إحسان عبد القدوس:

لأول مرة أرى في حياتي رجلا عنده
فكر جديد وجدير بالإنصات والكتابة

كيف تم اكتشاف مالك بن نبي

في سنة **1956** كتب إحسان عبد القدوس مقالا في مجلة روز اليوسف بعنوان:" الاستعمار في نفوسنا" قال: زارني شخص كاتب (والكاتب عند المصريين ليس مفكرا بل مستخدم في الإدارة) هو مالك بن نبي، وكان جزائريا، استقبلته وصار يحدثني عن مشروعه، قال: فبدأ يحدثني عن مشاريع

كثيرة فلم ألتفت إليه كثيرا، فإذا بي أجد أن الأمر جد وأن شيئا جديدا لديه، فإذا بالرجل يغوص في الأعماق وتركني أسبح على وجه الماء، ثم قال: لأول مرة أرى في حياتي رجلا عنده فكر جديد وجدير بالإنصات والكتابة، وأنا هنا سألخص لكم ما قاله الرجل دون أن أدعي أنني استوعبت فكره. كان المقال رائعا جدا ما قرأت مثله، وملخصه أن العرب أو المسلمين ظلوا نصف قرن أو أكثر يحاربون الاستعمار ولم يلتفتوا إلى أنفسهم لتجفيفها وتطهيرها من القابلية للاستعمار، فالاستعمار هو عَرَضٌ فقط، والمرض هو القابلية، فبدلا من أن أصب جهودي لإزالة الاستعمار، يجب قبل كل شيء أن أزيل من وجداني ومن نفسي ومن روحي القابلية للاستعمار، ثم قال: لذا فإنك ستجد فرقا بين الاحتلال والاستعمار، فاليابان وألمانيا محتلان، لذلك تجد أن ألمانيا واليابان في ظرف خمس سنوات من **45** إلى **50** كانت اليابان وألمانيا وصلتا تقريبا إلى بناء مجتمع كله بمرافقه ومصانعه ونظام دولته، ولم تبقيا مثلنا نبكي على الأطلال. مع أن اليابان نزلت عليها قنبلتان نوويتان ذريتان، وألمانيا كانت فوقها **4000** طائرة جعلتها قاعا صفصفا، ومع ذلك فهي في ظرف خمس سنوات استردت ميرسيدس، واستردت صناعتها، وصارت تصدر إلى الخارج وتزاحم فرنسا وغيرها، رغم أن فرنسا كانت هي المنتصرة، وهذا هو الفرق بين الاحتلال والاستعمار.

الاستعمار هو عَرَضٌ فقط، والمرض هو القابلية

فلسفة جديدة للتغيير

لذا يجب أن نبني الذات بتغييرها انطلاقا من قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فبامتزاج الدين والروح الدينية والوحي بالنفس، وامتزاج بين الوقت والأرض والتراب والإنسان، تبدأ الحضارة بالانطلاق، بمعنى أن إعطاء القيمة للوقت أي لزمن الإنتاج والتراب مادة الإنتاج، وللإنسان الذي هو صانع الإنتاج، هو سر الحضارة. عندنا مثلا الهيدروجين والأوكسيجين: هذه مادة وهذه مادة فإذا مزجنا بينهما كان الماء، وما الذي يصنع الماء ؟ هو التيار الكهربائي، الكهرباء نتيجة نهائية للتفاعلات السابقة.

كذلك الرسول صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه الوحي، أعطى القيمة الحقيقية للإنسان، وأصبح الإنسان إنسانا، مرتبطا بوقته، أي: إن صناعة

الحضارة هي ارتباط الإنسان بوقته وترابه، والتغيير النفسي يبدأ بالثقافة، والثقافة كما تعلمون عنده أربعة عناصر: منظومة أخلاقية مرتبطة بعنصر آخر وهو المنطق التطبيقي العملي وليس المنطق الفلسفي وإنما المنطق العملي الذي يزودك بالمنهج لصناعة شيء بأقل جهد وأقل تكلفة، ثم عنصر الذوق والجمال وعنصر العلم أو التقنية.

فلما قرأنا هذا المقال انطلقت أسأل عن هذا الرجل المفكر الجديد فلم أجد من يدلني عليه وذات يوم زرت الأخ الهاشمي الطود (الكولونيل المتقاعد "الطود")، ووجدت عنده الأستاذ أحمد البقالي والسيد محمد مولاطو رحمه الله ، ومحمد بنعيسى (وزير الخارجية الآن)، كنا طلبة جميعا وقال لي: عمن تبحث من الجزائريين: قلت له عن مالك بن نبي، وقال لي ها هو .

أول الغيث: ترجمة شروط النهضة والظاهرة القرآنية

ملخص القصة أن مالكا رأيته في الغد ووجدته يسكن في مكان لا يساوي **40** درهما في الشهر، فقيرا لا يملك شيئا تقريبا مجهولا لا يعرفه أحد، أخذناه وأسكناه معنا، فبدأنا نعمل بعد أن اقتنعنا بأفكاره، وبدأنا بترجمة كتابه شروط النهضة، بدأه الأخ عمر مسقاوي الذي كان يسكن معي أو في الحقيقة

أنا كنت أسكن معه لأنه في الحقيقة هو الذي كان له علي الفضل ، وأهينا الترجمة، وأنا لا أحكي لكم الحكايات ولكن أقول لكم إن الله إذا أراد شيئا هيأ له الأسباب، وإذا أتيته مشيا أتاك هرولة ويفتح لك الأبواب، المهم أن تبدأ بمنهج صحيح ونية صادقة، أما إذا وقفت فلا تنتظر شيئا، فلا يكفي المنهج الصحيح بل لابد من الانطلاق والفعل والأمل، كما هو الحال في الزواج فلا يكفي أن تتزوج بل لابد من التفكير والعمل والتربية للرقي بهذا الزواج، نحو الأفضل..

وذات يوم كنت في محاضرة الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة المصري الأسبق فقال للطلبة ناصحا: " أنصحكم يا طلاب أن تكون لكم لغة أو لغتان أجنبيتان أو أكثر، لا تقولوا: نحن فقراء أو ليس عندنا مال. انظروا إلى عبد الصبور شاهين، طالب فقير استطاع أن يتعلم الفرنسية وحده وأن يقوم بترجمة بعض المقالات.

وعبدالصبورشاهين شاب عصامي كان في السجن بتهمة كاذبة ملفقة ثم أطلق سراحه، فالتفتّ إلى أحد الطلاب المصريين وقلت له: هل تعرف عبد الصبور؟ وكان في المعهد العالي للتربية في عين شمس. فقال لي ها هو قد مر من هنا، فاتصلت به قلت له: السلام عليكم، هل أنت عبد الصبور شاهين، قال

نعم ، قلت: أخوك عبد السلام الهراس من المغرب، هل لك أن تترجم كتاب "الظاهرة القرآنية" للأستاذ مالك بن نبي فيكون لك ذخرا في الدنيا والآخرة.

وهكذا بدأنا العمل، ولما قرأ علينا ترجمته لمقدمة الكتاب أخذت أحسن ساعة يد عندي جديدة وقدمتها له هدية مكافأة له على هذا الإنجاز المبشر بالخير، فاستمر في ترجمة بقية الفصول. وانتقل إلى مراجعة ترجمة "شروط النهضة".

وقمنا بطبع الكتاب في المطبعة ، وأثناء الطبع تعرفنا على شخصية مهمة، وهو محمود شاكر، وهذا الأخير عرفنا على الأستاذ سعيد العريان وكان وكيل وزير التعليم، وقد اشترت وزارته أكثر من ألفي نسخة ووزارة الأوقاف اشترت ألفين ونحن بعنا حوالي **800** نسخة، وبذلك تهيأ الكتاب للطبعة الثانية كما أصبح مالك مستشارا لأنور السادات الذي كان رئيس مجلس الشعب والأمين العام للمؤتمر الإسلامي بالقاهرة . وهكذا انطلق العمل، وكنت مرارا آتي لمالك بالطلبة من سائر أنحاء العالم الإسلامي، من أندونيسيا وإفريقيا وماليزيا وسوريا ولبنان، وكنا نجتمع أحيانا أكثر من **30** شخصا وتأتي المخابرات وتسأل، ماذا يفعل هؤلاء، فيقال: هذا مستشار أنور السادات، ومرة ألقوا القبض على أحد زوارنا وأمسكوا به، لأن عبد الناصر كان قد وضع نظاما مخابراتيا لكل بيت تقريبا " فسألوه أين كنت؟ قال: كنت في زيارة

قالوا له: وما كنتم تفعلون ؟ قال أنا كنت أزور اللبنانيين أصدقائي، قالوا وماذا تعرف عن الهراس؟ قال: لا أعرفه: وقالوا: وماذا كنتم تدرسون؟ الإسلام؟ قال أنا نصراني، ولا علاقة لي بالإسلام، فاطمأنوا أننا لا نفعل شيئا.

ومن هناك انطلقت الفكرة، كما يقول الغزالي: "لو تعلقت همة المرء بما دون العرش لأدركته" المهم أن الإنسان إذا أراد شيئا يعتمد على الله. وإذا عزمت فتوكل على الله، لهذا اشتهر مالك بن نبي، وترجمت كتبه إلى كثير من اللغات الإسلامية والأجنبية، وأصبح فكره لا أقول هو الوحيد في الساحة، ولكنه فكرا ستجاب لطموح الشباب وطموح الأمة إذ أعطى منهجا للعمل وهو الذي يسير عليه الآن عمل كثير من إخواننا ومنهم الداعية الشاب عمرو خالد .

الحضارة ما هي؟ أو التقدم ما هو؟ يقول: هو فائض الواجبات، إذا رأيت فائضا في الواجبات فأنت في تقدم، وأما عندنا في الدول المتخلفة فالفائض هو الحقوق.

مالك بن نبي بين المرجعية الإسلامية والغربية

كثير من المفكرين يشككون في مرجعيته الاسلامية، ويقولون إن تأثره بالغرب جعله أقرب إلى العلماني منه إلى الاسلامي، بحكم معرفتكم الدقيقة المعايشة له ولفكره، ما مي شهادتكم في هذا المجال؟؟

إن الرجل كان مطلعا على التراث الإسلامي، مطلعا على القرآن، مطلعا على الحديث، كان يقرؤه بالعربية وبالفرنسية وكان له ارتباط ببعض العلماء بالجزائر، وكان صديق الشيخ عبد الله دراز، وهو علامة جليل عاصره ورآه واتصل به وكان معجبا به، وقدم له " الظاهرة القرآنية" كما يعرف الشيخ تاج، وهو شيخ الأزهر في عهد عبد الناصر، بعد عزله العلامة الشيخ

الجليل الخضر حسين[3] وهو من كبار علماء الإسلام، وكان شيخ الأزهر في عهد محمد نجيب ثم جاء عبد الناصر وعزله بصورة سيئة، وأتى بالشيخ تاج، والشيخ تاج هذا أيضا كان صديقا لمالك، كما أن مالكا يتحدث في مذكراته عن علاقته بالشيخ العربي تبسي وهو من علماء قسنطينة، وكان له معرفة بكثير من علماء قسنطينة والجزائر، فكان له حصيلة طيبة عن الإسلام وعلومه وقضاياه وكانت له علاقة ببعض القضاة العلماء عندما تولى الوظيفة الأولى في القضاء، إذ كان موظفا في المحكمة، على كل حال كان لا يحفظ القرآن ولا يحفظ الأحاديث ولكنه كان على اطلاع مهم جدا، لذلك أنا أعتبر أن من مصادر مالك بن نبي القرآن الكريم، إنه انطلق من القرآن الكريم وآراؤه وفلسفته منطلقة من الوحي، حيث رفع شعاره في كل كتبه الآية (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد 11، وهذا الشعار كان موجودا عند جمعية علماء الجزائر وعند جماعة المنار وكان عند الإخوان

[3] علم تونسي جليل فرمن تونس بعد محاولة فرنسا القبض عليه بسبب فتواه في التجنس بالجنسية الفرنسية، وقد كان له تأثير كبير في مصر حيث أصبح من هيئة كبار العلماء ومن كبار المصلحين. أسس جمعية الهداية الإسلامية، وقد تولى مشيخة الأزهر بإلحاح من الرئيس العظيم محمد نجيب، لكن لما خلفه جمال عبد الناصر طالب الشيخ الجليل بتقديم استقالته من المشيخة فأبى بشمم وكرامة ورد عليه: أتمم عينتموني فأتمم تقيلوني. فأقاله عبد الناصر وسلط عليه الصحافي السفيه محمد التابعي الذي آذاه كثيرا بهتانه.

المسلمين، وحركات الإصلاح كلها كانت ترى أن الإصلاح ينبغي أن يكون من الداخل، وقد اقتنع بذلك، ولذلك عندما تحدث هو عن حسن البنا ماذا قال؟ ، قال:" حسن البنا لم يكن يتلو القرآن بلسانه وإنما كان عندما يتلفظ به أو يتلوه كان القرآن يخرج من قلبه وكان كأنما أنزل عليه القرآن إذاك، وحينذاك لم يكن القرآن يمر عبر لسانه وإنما كان يمر عبر قلبه لذلك يقول في التجديد الإسلامي: إننا لا نحتاج إلى تجديد العقيدة وإنما نحتاج إلى تجديد الصلة بالله، عن طريق الخشوع وعن طريق فهم القرآن فهما عميقا، عندما تتكلم وتتلفظ بالقرآن يجب أن تتلوه عبر قلبك وعبر أعصابك وعبر عقلك وعبر جميع كيانك، لأن القرآن الذي يغير، ليس هو ذلك القرآن الذي يتلوه الطلبة في "المسيد" ولا ذلك الذي يتلى في الجنائز والإذاعات والتلفزات وغيرذلك مما يقصد منه إظهار البراعة في الحفظ والقدرة على التجويد، وإنما القرآن ينبغي أن يمر عبر القلب وأن يكون في الظرف النفسي الذي أنزل فيه على النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم".

كما أنه تأثـــر بابن خلدون الذي قال بالأطوار الثلاثة للدولـــة (التأسيس + التوسع + الانهيار) ونقل هذه الفكرة وطورها فقال: هناك مراحل ثلاث: عصر الروح ثم عصر العقل ثم عصر الشهوة والغرائز، وهي نفس القسمة الثلاثية التي تجدها في القرآن الكريم، كذلك عندما يقول إن

الواجبات مقدمة على الحقوق فإننا نجد الفكرة قرآنية أيضا ونجدها عند النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان أصحابه يعطون أكثر مما يأخذون، وهو يقول: الحضارة ما هي؟ أو التقدم ما هو؟ يقول: هو فائض الواجبات، إذا رأيت فائضا في الواجبات فأنت في تقدم، وأما عندنا في الدول المتخلفة فالفائض هو الحقوق.

إن المرجعية الإسلامية أساسية في تركيبته وفي تفكيره إضافة إلى اطلاعه الواسع على الثقافة الفرنسية وعلىما كتبه الإنجليز، وكان له اطلاع واسع على ما يكتبه الأمريكان والألمان، لأنه كان يعيش لمدة ثلاثين سنة في فرنسا، فكان في قلب الثقافة الغربية بباريس، ولكن دائما تجد منطلقه الأساسي إسلاميا، نعم إنه تأثر كثيرا في كتاباته بأفكار غربية، ولكن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها، فكان يتعامل مع الفكر الغربي تعامل المؤمن الصادق فينتقي مايراه مناسبا ويدع ما لا يراه مناسبا وينتقده، ولم يكن مستسلما للفكر الغربي، لذلك كان ينطلق من إيمانه الصادق بالدين وعلاقته بالاسلام، وازداد تعلقه بالمعرفة الإسلامية عندما اتصل بنا حيث أصبح يعرض كل ما يكتبه على الإسلام لذلك حذف بعض الأفكار التي رآها ربما لا تستقيم تماما مع الإسلام ولكنها لم تكن أساسية بل كانت هامشية وقليلة جدا: فكرة واحدة أو رأيان، ولكن هذا لا يقلل أو يشكك في مرجعيته الإسلامية الصافية.

فكان يتعامل مع الفكر الغربي تعامل المؤمن الصادق فينتقي مايراه مناسبا ويدع ما لا يراه مناسبا وينتقده

مالك بن نبي أيضا تأثر بالحضارة الشرقية، فالحضارة الهندية الممثلة في غاندي وفي طاغور ، طبعا تأثر بها كثيرا واستشهد كثيرا بأقوال إقبال، وأقول تأثر ليس بمعنى تبعه لا ولكن بمعنى استفاد ، أي أخذ الحكمة، كما نراه يأخذ الحكمة من الصين، إذ كان معجبا بحكمة الصين، ولكنه ما كان موافقا لماوتسي تونغ، وإنما الذي أعجبه في ماوتسي تونغ هو أنه استطاع أن يخرج شعبه كالمارد الجبار من خلال الأنقاض، وكان يقول:" إن الصين سوف يكون لها مستقبل كبير جدا، ولكنه كان غير موافق على ما يسمى بالثورة الثقافية، لم يكن موافقا على العنف، ويكره العنف ويؤمن أن التغيير ينبغي أن يكون سلميا، وإذا كان العنف فلرد الاعتداء، أما الاعتداء على الآخرين والهجوم عليهم فهذا يرفضه، ولذلك كان يأخذ من الأساس الحضاري الذي وقع في الإسلام، في مكة في (إقرأ)..، هنا كان انطلاق الشعلة التي بقيت إلى الآن تسري في عروقنا شعلة (اقرأ)، ويرى أنه لولا عظمة الإسلام وقوة الإسلام

لسقط الإسلام والمسلمون منذ زمن بعيد، ومع ذلك فحرب تلك الشعلة، شعلة اقرأ، كانت وما تزال حربا شاملة فكرية وروحية، وكان يحث على أن ننسجم مع انطلاقة (اقرأ) في الجانب الروحي وأن نتجاوز عصر ما بعد الموحدين، أي عصر التدهور الأخلاقي الذي هو أساس انهيار الحضارات.

هذا هو مالك، وكان كما قلت سابقا له تأشيرة الدخول إلى قلوب الناس وعقولهم في عصر العلمانية، وفي عصر القومية وعصر الحكم البعثي وعصر حكم العسكر الذي لا يؤمن بالفكر، حكم العسكر الذي يرى أن الفكر والدين والاقتصاد وكل شيء يجب أن يكون تابعا لهم، وخادما لغرورهم، حكم العساكر نكبة على الأمة، ومالك بن نبي تأكد له ذلك عندما رأى محمود شاكر العالم الجليل والكاتب العظيم والشاعر الذي أعتبره أنا من الشعراء الكبار، لما رآه وراء القضبان ظلما وعدوانا، إذاك تأكد أن العسكر يمثلون قمة الانحطاط.

ولقد أخذ على مالك أنه أشاد بعبد الناصر، ومن لم يشد بعبد الناصر؟؟ عبد الناصر أشاد به القاصي والداني، لأن الناس كانوا يرون فيه المخلص، فنحن في أعماقنا كنا وما زلنا نعتمد على المهدي المنتظر، ونرى أن المهدي المنتظر هو الذي سيخلصنا، فبدلا من أن أقوم أنا وأنت بواجبنا، رحنا نعتمد على فكرة المهدي المنتظر.

مالك بن نبي كان بلده مستعمرا حوالي 130 سنة، ثم لما بدأت الثورة الجزائرية، ورأى عبد الناصر يساعد الثورة، كان لابد أن يرى فيه المخلص، فوقع في الغلط. فإذا مالك بن نبي كان مثل العالم الإسلامي و العربي، وجد مخلصا فقال هذا هو المهدي المنتظر. ولكنه نسي أن ظروف جمال عبد الناصر ليست هي ظروف صلاح الدين الأيوبي. لذلك أنا لا أعتبر أن عبد الناصر كان عميلا، أبدا، عبد الناصر لم يعرف في بيته الفساد، ولم يعرف عنه اختلاسات الأموال وما الى ذلك، مات شريفا، ولكنه عسكري والعسكري إذا انتقل من مهنته العسكرية إلى السياسة تعسكرت السياسة ولم يعد لها من السياسة شيء، وهو عسكري رئيس في السياسة، و العسكري لا يصلح له إلا أن يكون مرؤوسا، ورجال السياسة رجال الفراغ، و رجال "البولتيك" على حد قول مالك بن نبي، رجال "البوليتك" لا رجال السياسة بمعناها الحقيقي الذي هو علم وفن، واستعداد عقلي و نفسي، أي وجود قابلية و نبوغ في مجال السياسة، أن تكون أكبر سياسي في العالم وتجد نفسك محاطا بالمثبطين والمتآمرين، عبقريتك ستروح أدراج الرياح، يجب أن تكون محاطا بأمثالك. أما أن تكون مهديا منتظرا معصوما فلا بد أن تأتي بسلطة مباشرة من السماء كسلطة الأنبياء. ومع ذلك الأنبياء طولبوا بأن يسلكوا سبل السنن الإلهية من المواجهة والصبر والأذى و... و غيرها.

هذا هو مالك بن نبي، أما ما كان يروجه بعضهم من أنه لم يكن يعرف شيئا عن الإسلام، هذا غلط فادح، والذي قال هذا الكلام مسكين إما عنده شهوة، وإما أنه لم يخالط مالك بن نبي حقيقة.

أنا خالطته سنتين كأني عشت معه أربعين سنة، وحياتي معه حقيقة، أحسن أيام حياته، وحين رجعت إلى المغرب بقي معه بعض أصحابي (عمر مسقاوي) رجل المكرمات و الزهد والعفة و الورع والإخلاص، كنا نعتبره أحد أولياء الله، به كنا نتوسل إلى الله لاستقامته. وقد طبع كتب مالك بن نبي، ودرت عليه مآت الملايين، لكن عمر صرف هو من جيبه ولم يأخذ منها قرشا واحدا بل دفعها إلى زوجه وبناته، أليس هذا من أولياء الله ؟

كان له تأشيرة الدخول إلى قلوب الناس وعقولهم في عصر العلمانية، وفي عصر القومية وعصر الحكم البعثي وعصر حكم العسكر الذي لا يؤمن بالفكر، حكم العسكر الذي يرى أن الفكر والدين والاقتصاد وكل شيء يجب أن يكون تابعا لهم، وخادما لغرورهم، حكم العساكر نكبة على الأمة

مالك بن نبي الإنسان

نتنقل الآن إلى الحديث عن مالك الانسان، نتكلم عن بعض تفاصيل المعاشرة في حياته...

مالك بن نبي الإنسان، رجل هو وعبد الله الطيب ومحمود شاكر و الفقيه الحمداوي، وصالح أبو رقيق ...خمسة أشخاص عشت معهم يمتازون جميعا أنهم جماعة من خيرة ما عرفت يجمع بينهم الفطرة والثقة فيمن يحبون، كأنهم أطفال برءاء يعيشون معك، أول شيء يسلمون لك أنت تسيرهم، مالك بن نبي كان يعيش معنا بسيطا جدا، البساطة التامة، كان عندما بدأ يتلقى النقود على كتبه و يدفع حظه في البيت فنحاسبه كما نحاسب بعضنا فيخضع لنا فلا يرى في ذلك غضاضة، يقول: هل أساعدكم؟ نقول: لا، ثم يثق بنا ثقة كبيرة، وخصوصا عمرمسقاوي و أنا، نقوده حيث نشاء، ولكننا كنا مخلصين ناصحين والحمد لله، لكن مالك بن نبي ...عنده جانب في شخصيته لا تمسه، عنده مسلمات، عنده منطقة حظر، وهي منطقة المسلمات، فهنا كنا نأخذ

حذرنا، ومع ذلك ما كنا نراه صوابا كنا نناقشه فيه وندخل معه في حوا، خصوصا أنا، حوار ولو بأصوات عالية، وأحيانا كنا نحاكمه عندما يقع له خلاف مالي، ولاسيما معي أو اختلاف في مسألة بينه وبين شخص من جماعتنا، كنا نأتي ننصب أحدنا، إذا كان الأمر بيني و بينه ننصب الشيخ ناصر[4] هو المحامي عنه والقاضي عمر مسقاوي وأنا أدافع عن نفسي.

وقد وقع بيني وبينه خلاف مرتين احتكمنا فيهما إلى قاضينا وانتصب عمر مدافعا عن مالك وكان الحكم يصدر لصالحي ويخضع مالك للحكم وينفذه وهو راض لأنه يعرف أن عمر مسقاوي إنسان عادل و صادق.

وما أعتز به هو أن مالك بن نبي أبى أن يودعني في الدار بالقاهرة عندما أتممت دراستي(ليسانس) وعزمت على العودة إلى المغرب، فأبى إلا أن يودعني في بور سعيد على باب الباخرة. جاء هو وعمر مسقاوي وناصر الصالح وعبد الرحيم طريف، أما حسين الصالح فكان قد سافر...أما هؤلاء فبقوا معي إلى أن وصلت إلى باب الباخرة وتمنوا أن يذهبوا معي إلى المغرب، لأن بيننا محبة نادرة حقيقة، ومالك بن نبي ما بيني و بينه من المحبة شيء يفوق التصور، لأننا كنا

---

[4] الشيخ ناصر ابراهيم الصالح من أعز إخواني، كنا نسكن معا وتولى القضاء بلبنان ثم أصبح رئيس المجلس الإسلامي الأعلى للقضاء، و هو شقيق الدكتور الشهيد صبحي الصالح رحمه الله، وكان آية في الذكاء، تخرج في الأزهر بكلية الشريعة وكلية الحقوق.

زاهدين في الدنيا، وما زلنا والحمد لله، أما لوأردنا أن نستثمر ما عندنا من مواهب وعلم – حتى مع الحكام – لبلغنا شأوا كبيرا في مجال الدنيويات..

وكم رجال ورطهم تلامذتهم ومريدوهم، ورطوهم مع الحكام، حتى خرجوا بها عن الحد من أجل الدنيا، أما نحن فما فعلنا ذلك أبدا، نحن كنا ننبهه من المزالق، خذ بالك، لاتقل لا تفعل، إياك...إياك، خذ بالك الله رقيب والناس لا يرحمونك، فكان كثير الحذر، وعندما عرف حقيقة الثورة، ثورة عبد الناصر، عندما رأى محمود شاكر وراء القضبان، لا لذنب اجترحه، ولكنه كتب بعض المقالات (أباطيل وأسمار) للرد على باحث جاهل بموضوعه[5]، ومع ذلك كان يعد من أقطاب الفكر والأدب في ظل ثورة العسكر.

إذا مالك بن نبي في البيت سلس، يعيش معنا بشكل عادي، ولكنه لا يصبر على معاشرة أحد عندما تأتيه ما نسميه نحن (ذبابة الصيف) يثور...يخرج من غرفته علينا...رحماك يا رب...ونتركه حتى يهدأ، فكانت لنا سياسة قوامها أن نتركه حتى يعود طبيعيا (وتنزل حرارته إلى **37**)، أما عندما يكون ثائرا وحرارته **40** و**41** فلا نرد عليه حتى يهدأ، عندئذ نقول هذا صواب و هذا خطأ ونناقشه بهدوء فيقتنع، أما وهو متوتر وترد عليه فإنه سيثور من جديد. مالك بن نبي فيه عزة نفس قوية جدا. ولذلك فإن الله

---

[5] لويس عوض

سبحانه وتعالى اللطيف بعباده أمثال مالك بن نبي قد لطف به، إذ انتقل – وهذا والحمد لله باقتراح مني– إلى السكن مع إخواننا الليبيين، وهؤلاء الليبيون عاملوه حقيقة أحسن منا بكثير، كانوا يمشون في البيت على رؤوس أصابعهم حتى لا يزعجوه، وعاملوه معاملة في غاية النبل وعلى رأسهم الدكتور رفعت فنيش الذي كان نائب مدير صندوق النقد الدولي وهو من كبار الاقتصاديين في أمريكا الآن، رفعت هذا ملاك، كثير الحياء واسع العلم والصلاح والعفة والورع تجاوزنا بمراحل، أين نحن منه في صلاحه وعفته وفكره. هذا كان يحوط مالك بن نبي هو والأستاذ المحامي إبراهيم الغويل، وعلي ورّيث رحمه الله والرابع الذي كان معهم هو عياد العزابي الذي كانت له مكانة كبيرة في الجامعة العربية وهو يعيش الآن في القاهرة، هؤلاء الإخوة رحم الله منهم صاحبنا علي وريث الذي توفي في حادثة سيارة، والباقون أحياء والحمد لله، وكان لهم فضل كبير على إنتاج مالك بن نبي في تلك الحقبة...

وما أعتز به هو أن مالك بن نبي أبى أن يودعني في الدار عندما أتممت دراستي(ليسانس) وعزمت على العودة إلى المغرب، فأبى إلا أن يودعني في بور سعيد على باب الباخرة

قضايا الوحدة والتجزئة

نتحدث الآن عن أهم القضايا التي شغلت مساحة مهمة في فكر مالك بن نبي رحمه الله. ونبدأ بقضية الوحدة والتجزئة باعتبار ما مشكلة من مشكلات الحضارة.

مالك بن نبي رحمه الله جاء إلى القاهرة في سنة **1956** من أجل الدعوة إلى تكوين وحدة أسيوية إفريقية، نعرف أنه كان هناك مؤتمر باندونغ سنة **1955**، وهذا المؤتمر كان فيه جمال عبد الناصر و تيتو ونيهرو وسوكارنو، وسيظهر نيكروما في إفريقيا، إن مؤتمر باندونغ كان يعتبر حدثا عظيما لو طبق ما فيه ، ومن العجب أن الجانب اليساري كان يشجع مؤتمر باندونغ ، وحتى الإتحاد السوفياتي كان يميل إلى باندونغ، وزعماؤنا زعماء التحرير كانوا كذلك يميلون إلى باندونغ ، وأنا أعرف أن الأستاذ محمد ابن الحسن الوزاني وعلال الفاسي وزعماء من العالم الإسلامي المستعمر كلهم حضروا في باندونغ، حيث كان نقطة تحول كبيرة جدا، فمالك بن نبي فلسف فكرة المؤتمر الذي كان يحتاج إلى أسس فكرية، وبين العلاقات والأساسات التي تربط وتوحد إفريقيا

مع آسيا، وكان يرى أن هناك عناصر أو أسسا مشتركة بين الإسلام وبين البوذية و الكنفوشيوسية وبين الهندوسية أي الجانب الروحي والجانب الأخلاقي.

ولم يكن لهؤلاء السياسيين أي فكرة عن المسوغات البنيوية الأساسية التي يجب أن تنبني عليها الوحدة الإفريقية الآسيوية ...

وكنا نعترض عليه ونقول: هؤلاء ليسوا موحدين، يقول: نحن بالنسبة إلينا يهمنا الجانب الأخلاقي وجانب التحرر من الاستعمار، ولهذا قيمة كبيرة جدا، فكلنا نعاني ويلات ومصائب الاستعمار، فهذه بلاد الصين والهند والشرق الإسلامي والعالم العرب والإسلام الإفريقي هؤلاء عندهم أسس في مواجهة الاستعمار و مبدأ طرد الاستعمار، وهذا شيء له علاقة أيضا بالجانب الروحي و الجانب الفكري، فنحن كنا نرى الحقائق.

أما مالك بن نبي فلم يكن يعيرها أي اهتمام، ومع أن" نهرو" إذ ذاك كان يعامل المسلمين معاملة سيئة وكذلك الصين، فلم نكن نرى تباشير الخير في هؤلاء، وتبين أن هؤلاء الزعماء كانوا يبنون الهند على أسس هندوسية و الصين على أسس بوذية، و كانوا يحاربون الإسلام محاربة لا هوادة فيها إلى الآن، في الصين الآن يوجد **150** مليون مسلم، والسلطات تقول إن عدد المسلمين بالصين لا يتجاوز **30** مليون مسلم، لأن مشروعهم مبني على

تقليص عدد المسلمين بهذا البلد إلى هذا الحد ثم القضاء على الإسلام نهائيا ، وهذه استراتيجية يتفق عليها العالم كله ضدا على الإسلام. و لا ننسى أنه كان يدعو الى وحدة المغرب العربي، ومالك بن نبي لم يكن يشعر بأنه جزائري، بل كان ينتسب إلى المغرب الكبير.

باندونغ كان مظهرا من مظاهر الفورة السياسية الراهنة التي كانت تمر بتلك الدول، حركة التحرر في الجزائر، و التقدمية في أندونيسيا والهند، والثورة المصرية والشيوعية اليوغسلافية المستقلة عن موسكو.

فمالك بن نبي وجد نفسه أنه عقل هذا التجمع الذي كان فيه تقريبا ثلاثة أرباع العالم... كان يخشى أن يضيع كتابه عن الأفروسيوية ويغتال هو حتى لا يوصل فكرته لهذا المؤتمر، كان مالك بن نبي مندفعا ليذهب إلى الهند، ولكن السفير الهندي بباريس لم يكن متجاوبا معه، كما أن الحكومة الهندية لم تعر لفكرة مالك بن نبي اهتماما بعد أن كان السفير الهندي هو الذي وعده بأنه سيقوم بطبع الكتاب بالفرنسية و يترجمه الى الإنجليزية والعربية و إلى غير ذلك من اللغات الأخرى. فماذا يفعل ؟ قال له: إن كل ما أستطيع أن أفعله هو أن تعطيني الكتاب وأعمل على تبليغه للسفارة الهندية بالقاهرة، إذاك هرب هو و الكتاب... و خرج من فرنسا دون أن يلتفت لمشروعه العظيم و انقلابه الكبير كما كان يتصوره...

وطبع الكتاب، ولا أظن أحدا قرأه بالفرنسية، طبعته وزارة الإعلام المصرية لأن الفكر الثوري لعبد الناصر لا يختلف عن الفكر الاشتراكي والحداثي و التقدمي اليوم، يعني كلاما فارغا وفورة عاطفية كنار التبن المعزول في الصحراء تشب بسرعة و تنطفىء و تذروها الرياح. عندما ذهبنا أنا ومالك بن نبي والتقينا ببعض المسؤولين على أرض الواقع وجدنا أن هؤلاء أبعد ما يكونون عن التفكير في توحيد العالم الأسيوي الإفريقي، المهم عندهم أنهم طبعوا الكتاب وهذا يكفي !!، فبدأنا نحن من الصفر تقريبا، حقيقة كانت الأرضية أو الجو مزدهرا بالروح الإسلامية التي زرعها علماء أجلاء ودعاة كبار مثل الإخوان المسلمين ومثل الجمعية الشرعية، مثل الجمعيات السلفية التي كانت في مصر و الاتجاهات الصوفية النظيفة البريئة التي كانت في مصر، فمصر وجدناها مهيأة، ولكن الذي حمل حقيقة روح الدعوة لفكرة مالك بن نبي هم نحن في المغرب وإخواننا في الجزائر، و إخواننا في لبنان و سوريا والسعودية والسودان، وبعض إخوا ننا في أندونيسيا وغيرهم لما كان لي من علاقات مع طلاب من العالم الإسلامي كله، ونشرنا الدعوة بين هؤلاء الطلاب، فالتقينا بإخوان لنا يحملون نفس الهم و لكن من منطلق إسلامي، لأن منطلق مالك ابن نبي كان منطلقا روحيا فكريا.

أنا أعرف أن الأستاذ محمد ابن الحسن الوزاني وعلال الفاسي وزعماء العالم الإسلامي كلهم حضروا في باندونغ، حيث كان نقطة تحول كبيرة جدا، فمالك بن نبي فلسف فكرة المؤتمر الذي كان يحتاج إلى أسس فكرية، وبين العلاقات والأساسات التي تربط وتوحد إفريقيا مع آسيا

إن وحدة المغرب العربي كانت حاضرة لديه، كانت عنده أساسية لكنه ما كان يريد أن تقوم الوحدة على القومية ولكنه لا يحارب الفكرة القومية، لأنه كما يقول أنا لا أحارب الباطل إلا بنصرة الحق وإظهاره، فإن الباطل كان زهوقا من تلقاء نفسه، فهو كان يتهرب من مواجهة ردود الأفعال ومحاربة البعث العربي في سوريا والعراق الذي ظهر عواره بسقوط بغداد، وبسقوط القومية العربية كلها، وفشلها وانحياز جل اليسار إلى باقي القوميين العرب... وبعض هؤلاء انحازوا إلى المعسكر الاستعماري الواضح وعلى رأسه أمريكا وفرنسا وأفضلهم من يئس واعتزل النضال، فمالك كان من مذهبه: (أظهر الحق يزهق الباطل)، ويقول:(إياك وإضاعة وقتك في محاربة هؤلاء، فإن هؤلاء مهزمون ابتداء، أتقن حقك، بيِّن حقَّك، وكن مؤمنا بحقك، أما هذا الباطل

فظهوره فقط بسبب تفريطك في حقك، فباطل الآخرين باطل مهزوم فوجوده بسبب ضعفك وابتعادك وتركك الفراغ للباطل يعيث في الأرض فسادا).

لكن كيف استطاع أن يمزج بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي؟

إن منطلق مالك بن نبي هو منطلق إسلامي بحت ويعزز آراءه بآراء أخرى يأخذ حكمتها من الشرق ومن الغرب فالحكمة ضالة المؤمن، ولذلك تراه يستشهد بمفكرين وفلاسفة ومؤرخين من الغرب: فرنسا، ألمانيا إنجلترا، ومن الهند والصين وروسيا، ثم إنه قد يأخذ الفكرة من كاتب أو مؤرخ غربي لكنه يطورها ويحلها محلها اللائق مثل فكرة " الذرية " أو التفكير الذري الذي يرمي به المؤلف " جب " الفكر الإسلامي، فبين مالك أن هذه الظاهرة ملازمة لكل أمة أو شعب في مرحلة من مراحل تطوره نحو الأسفل، فالمسلمون كغيرهم أصيبوا بهذا المرض الحضاري في المرحلة الأخيرة من تطورهم، أما في إبان حضارتهم فكانت مناهج تفكيرهم علمية راقية ..

كان من مذهبه: (أظهر الحق يزهق الباطل)، ويقول:
(إياك وإضاعة وقتك في محاربة هؤلاء، فإن هؤلاء مهزمون ابتداء، أتقن حقك بيّن حقّك، وكن مؤمنا بحقك، أما هذا الباطل فظهوره فقط بسبب تفريطك في حقك، فباطل الآخرين باطل مهزوم وجوده بسبب ضعفك وابتعادك وتركك الفراغ للباطل).

المرأة في فكر ابن نبي

مالك بن نبي كان من أوائل من اهتم بقضايا المرأة المسلمة ودعا إلى مؤتمر نسائي عربي....

مالك بن نبي في هذه الفكرة يقول إن قضية المرأة الأجدر بأن يتكلم فيها هي المرأة، ولكن أن تكون معززة بحكماء وعقلاء وعلماء لا لدراسة مشكل المرأة، بل لدراسة مشكل الإنسان، فهو يقول إن أحق الناس بدراسة هذا الموضوع المرأة نفسها، ولكن من الغلط مبدئيا ومنهجيا أن ندرس مشكل المرأة بعيدا عن مشكل الرجل، لأن المشكل مشكل أمة، مشكل إنسان، أما أن نجزئ الأمور، فهو خطأ منهجي، إن المرأة ينبغي أن تهتم هي بنفسها وتدرس علاقتها بالرجل في منظومة واحدة، فهو يرى أن الرجل والمرأة هما وجهان لعملة واحدة ويخضعان معا لمقتضيات المصالح العليا للمجتمع، ولهذا تهرب من الدخول في نقاشات عقيمة في موضوعات مثل تعدد النساء ... إن الأمر يتعلق بالمقاصد العليا الشريفة للمجتمع، وهو لا يساير الأهواء ولا الإيديولوجيات وإنما حيث كانت المصلحة فثم شرع الله، لهذا دعا إلى مؤتمر إسلامي عالمي للمرأة لتدرس دراسة علمية في إطار المبادئ الإسلامية السامية ما يتصل برسالة المرأة المسلمة وواجباتها في المجتمع الإسلامي المتحضر.

تأثير مالك بن نبي في الفكر السني كان واضحا، ولكن العجيب أنه استطاع أن يخترق مسألة المذهبية والشيعة خصوصا . . .

سأقول لك قضية خطيرة جدا وهي، حكى لي مسؤول كبير جدا على الكتاب الإسلامي فقال لي: كنا في لبنان وفي سوريا نبيع الكتاب الإسلامي: رقم1، مالك بن نبي، سيد قطب، حسن البنا، محمد باقر الصدر، وكان الإقبال من السنة والشيعة والنصيريين وحتى الدروز على الكتاب الاسلامي، فصار بذلك الفكر الإسلامي يوحد هذه العناصر كلها، وكنا نحن في غاية من الفرح والنشاط، فلما وقعت الغلطة، حينما وقع الهجوم على الكلية العسكرية في مدينة اللاذقية، ووقعت الفتنة بين حزب البعث (حافظ الأسد) وبين الإخوان المسلمين، قال: لم يعد أحد يشتري من الشيعة كتب إخواننا السنة ولا السنة يشترون كتب الشيعة فوقع الانفصال، وهذه أكبر كارثة وقعت بالمسلمين دون أن يتفطن إليها أحد.

تعلم أن المسلمين شيعة وسنة، فيهم استعداد قوي للوحدة، ولكن هناك عناصر مدسوسة عن علم أو غير علم لمنع وقوع هذه الوحدة ، مثلا عندما قام مصدق [6] لمحاربة الإنجليز والانقلاب على الشاه فإن العالم الإسلامي

[6] زعيم إيراني ورئيس وزراء إيران، قام بانقلاب وطرد الشاه ثم انتكست الثورة بسبب خيانات داخلية وتوافقات خارجية.

كله كان يؤيد آية الله الكاشاني [7]،... ونوره مصدق لكن وقعت خيانات فعزل مصدق واغتيل فاطمي وزير الخارجية، وأعيد الشاه ورجعت الأمور أسوأ مما كانت عليه، ولما وقعت ثورة الخميني فإن العالم الإسلامي كله سنة وشيعة أيدوه وأكبر أنصاره في فرنسا هم السنة، شباب السنة ورجال السنة، ونحن كنا متحمسين له، ولكن عندما تتحول الأمور إلى طائفية من جديد تجر إلى محاربة السنة والشيعة عندئذ تفسد القضية مثل ما يقع الآن في العراق، فلو كانت هناك دعوة سنية صادقة أو دعوة شيعية صادقة، فإن الكل سيستجيب لها، ولكن شرط أن تكون بريئة من الطائفية وبريئة من أغراض القومية كما نرى اليوم في العراق، ونحن نؤيد مبادرة وحدة المسلمين لكن شرط احترام الخصوصيات.

فهناك شباب شيعة ورجال شيعة متأثرون جدا بمالك بن نبي، ولكن عندما يأتي الفكر التزمتي، الفكر الرجعي الذي يفضل مذهبه على مذهب آخر، فهنا تقع الكارثة، والمصيبة أنك تجد إخواننا في بعض المذاهب ينظرون إليك كما ينظرون إلى مذهب شيعي، مثلا صاحب مذهب حنبلي ينظر إلى الشافعي أو المالكي أو الحنفي كما ينظر إلى الشيعي، وأحيانا يكفرك، وهذا مشكل، هذه عاهة في مناهج التفكير عندنا.

---

[7] الزعيم الديني الذي اعتمدت عليه الثورة الإيرانية الأولى لكنه تخلى عنها

ومالك الآن مدرسة فكرية متطورة ومزدهرة يمثلها أمثال الدكتور سيد دسوقي حسن صاحب كتاب: مقدمات في البعث الحضاري ، وثغرة في الباب المسدود بالاشتراك مع الدكتور محمود سفر، وأمثال الأستاذ عمر مسقاوي والدكتورة السعودية نورة السعد وغيرهم في المشرق العربي. أما في المغرب العربي فمدرسة مالك مزدهرة جدا والحمد لله، وهناك أطروحات عن فكر مالك قدمت وماتزال تقدم في جامعات عربية إسلامية وغربية ومن ذلك: رسالة دكتوراه عظيمة يعدها باحث جزائري نابغة في باريس.

من الغلط مبدئيا ومنهجيا أن ندرس مشكل المرأة بعيدا عن مشكل الرجل، لأن المشكل مشكل أمة، مشكل إنسان، أما أن نجزئ الأمور، فهو خطأ منهجي.

****

لو كانت هناك دعوة سنية صادقة أو دعوة شيعية صادقة، فإن الكل سيستجيب لها، ولكن شرط أن تكون بريئة من الطائفية وبريئة من أغراض القومية كما نرى اليوم في العراق

في الأخير، ما هي مميزات فكر مالك بن نبي، ما الجديد الذي جاء به، وما هي خلاصة فلسفته في التغيير؟؟

إن أفكار مالك بن نبي هي أفكار حسن البنا و أفكار سيد قطب وفكر محمد عبده، لكن يمتاز مالك بن نبي بصياغات وبإضافات، إن مالك بن نبي رحمه الله قدم الجديد من الناحية المنهجية فتوجه نحو دراسة الذات ودراسة الخارج وحلل أسباب قيام الحضارات وأسباب سقوطها وحاول أن يقدم معادلة بناء الحضارة انطلاقا من معالجة الداء في جوهره لا الانشغال بالأعراض والمظاهر وطبق ذلك في الواقع عبر فجر الإسلام وظهره وعصره وعشيته ..

وبين أن شروط النهضة متوافرة والحمد لله، وعناصر البناء الحضاري موجودة ولا سيما: الوقت والتراب، فعلينا إيجاد تربية الإنسان على أساس قرآني روحي الذي يمزج بين الإنسان والتراب والوقت وعندئذ تتحقق الخطوة الأولى في الإقلاع الحضاري وهي: حصانة الذات من القابلية للاستعمار.

إن بناء الأمة – في نظره – لا يكون إلا على أساس تطهير النفس والكيان من عوامل مرض الوهن وهو القابلية للاستعمار، وذلك بغرس العقيدة الصحيحة المحركة الفعالة التي تبعث على الخشية والتقوى والمراقبة والمحبة والعمل الدؤوب والإتقان والإجادة والتجديد واستخدام أحسن وأنفع

الوسائل لنفع الأمة والتفكير من أجلها، وبذلك تصبح جميع العبادات متعاونة هادفة إلى ترقية الإنسان خلقيا ونفسيا واجتماعيا وعلميا وتكنولوجيا ... وبذلك تختفي الأعراض المرضية التي ضيعت علينا كثيرا من الوقت والجهد عندما بذلنا كل وسعنا للقضاء عليها دون إدراكنا لجوهر المرض وحقيقته ...

إن امتزاج الإنسان بترابه ووقته بفضل العقيدة هو الذي ينشئ الثقافة الكفيلة بالتغيير الداخلي فالخارجي ... تلك الثقافة التي أساسها الأخلاق الإسلامية والتكنولوجية والمنطلق العلمي والذوق الجمالي.

إن الوصفات العلاجية التي قدمها مالك بن نبي من خلال إنتاجه الغزير ما تزال تحتفظ بقيمتها وحيويتها وما تزال الأمة الإسلامية ولا سيما المغرب العربي و إفريقيا في أمس الحاجة إليها في هذه المرحلة المتدهورة من حياتنا، ذلك التدهور الذي يستترف أمتنا كل يوم إلى درجة أن مجتمعاتنا قد تفقد مناعتها فقدانا تاما فتنشغل فقط بتخفيف الآلام وتزيين المظهر مع اليقين أننا هالكون ومستبدل بنا غيرنا، سنة الله في توارث الحضارات" فإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم".

إن الأمة التي يشغل بالها أن تنهض يجب أن تترجم ذلك إلى إرادة وعزم وتنفيذ بناء على أساس مخطط علمي وتقني مدروس يترجم اختيارها الذي استقرت عليه، ولنا في الصين واليابان وألمانيا بعد الحرب، وماليزيا الإسلامية

التي بهرت العام وتركيا في ظل حزب العدالة والتنمية التي أذهلت العالم أيضا بحسن إدارتها واتزان سياستها وبُعد نظرها وقوة حزمها وإحكام منطقها وحسبان خطواتها وطول صبرها ونَفَسِها وعفة أياديها وترَفُّع همتها، فأمامنا إذن أمثلة حية بعزائم التقدم والنهوض وتجارب الإرادة والإدارة مع الأهداف والوسائل لتحقيق الاختيارات وتحويل النظرية إلى واقع معيش وملموس، والآمال إلى حقائق ماثلة ومتنامية تبشر دائما بالظفر والفوز والفلاح.

إن أفكار مدارس الإصلاح الإسلامي ماضيا وحاليا تتكامل فيما بينها وقد أفاد منها مالك بن نبي في مشروعه إفادة كبيرة، فهو بذلك عصارة تلك المدارس والمشكل ليس في صلاحية المشروع، ولكن المشكل في عدم دراسته دراسة علمية وإرادة تطبيقه تطبيقا واعيا وللحرص على أن يكون الإقلاع سليما ومعالم مسيرته واضحة وهادية ناصحة ...

نشكركم على تفضلكم بهذه السياحة الفكرية في تراث هذا المفكر الكبير بمناسبة مائويته وفاء له ولأفكاره التي مازالت في حاجة للتعريف بها من جهة، وللفعالية التي ماتزال تتميز بها .

ورحم الله مالك بن نبي، المفكر الشامد صاحب المشروع المتجدد، ونفع الأمة بأفكاره، آمين.

فاس في:

01 رمضان المبارك 1426 الموافق 05 أكتوبر 2005